كلية : الآداب جامعة الأنبار

القسم او الفرع : اللغة العربية

المرحلة: الرابعة

أستاذ المادة : د. احمد عبدالعزيز

اسم المادة بالغة العربية : النثر العربي الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern Arabic prose

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: تطور النثر العربي الحديث

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية : The evolution of modern Arabic prose

تطور النثر العربي الحديث عوامله ومظاهره

أخذت بوادر الضعف والعقم تظهر في الأدب العربي ، شعره ونثره ، منذ احتلال بغداد على أيدي المغول في عام ٦٥٦ هـ ، واستفحل ذلك وأصبح معلما بارزا من معالم أدبنا في العهد العثماني حيث أُهملت اللغة العربية وصارت اللغة التركية لغة الدولة الرسمية .

عاش الوطن العربي خلال عدة قرون انكسارا حضاريا ، أصبح فيها كل شيء باعثا على التخلف والضعف ، فالنظام السياسي انعزل عن الشعب وصار قائما على الظلم والجور ، فاختفت المساواة بين الناس واستشرت الرشوة وأهملت مرافق البلاد الرئيسة ودمرت مصادر الثروة فانتشر الفقر والبؤس وأصبح المجتمع يتكون من مجتمعين رئيسيين هما : طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء التي تشمل أغلبية الشعب ، كذلك هدمت المدارس وتغشى الجهل والأمية بين الناس وفي الوقت نفسه تدهورت الصحة العامة وانتشرت الأمراض والأوبئة الفتاكة ، مما أدى إلى هلاك أعداد كبيرة من السكان .

كان طبيعيا أن تؤثر هذه الأجواء الشاذة في الأدب سلبا ، فقد ضعف الأدب شعرا وساده الانحطاط إذ صار الأعيب لفظية وأداة من أدوات التسلية فلم يبق فيه مظهرا من مظاهر العاطفة أو الفكر وظهرت فيه الركاكة والعجمة والعامية .

ان النثر العربي – وهذا هو موضوعنا خلال هذه الفترة أكثر من نصيب الشعر وذلك لأن النثر – كما هو معروف – يرتبط ارتباطا كبيرا بالفكر والثقافة فما دام الفكر والثقافة مختلفين فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن ينهض النثر فهو ابن الفكر والحضارة ، يعيش بواسطتها ويستمد أسباب حيويته منهما ، فالنثر في هذا العصر فقد روحه وصار بعيدا من الفكر والشعور في الوقت ذاته ، إذاً ما العمل وكيف يمكن أن يستمر على نفسه ، وهو خاوٍ فكرا وشعوراً ؟ لم يجد أمامه إلا أن يلجأ الزخارف اللفظية ، والألاعيب البديعية حتى يعوض عن هذا النقص الذي وجده في كيانه ، فكان أن طغى السجع على أسلوب النثر وشاركه في هذا البديع ، الأمر الذي جعل أسلوب النثر أسلوبا مزخرفا ومتكلفاً .

ومفتقرا إلى كل ما يمت بصلة إلى الأدب الحي وصارت الثقة واسعة جدا بين هذا الأسلوب وأسلوب النثر في عهوده الأولى .

ولم يستمر هذا الضعف في أسلوب النثر حسب ، بل تعداه إلى مضمونه ، لذا ضاقت موضوعاته وعدت موسوعات ساذجة ودارت على بعض الإخوانيات والخطب والمحاضرات .

ظلت هذه الخصائص والسمات في النثر العربي حتى منتصف القرن التاسع عشر حيث أخذت تظهر عوامل ومستجدات في المجتمع العربي تعمل على تغيير النثر ونهضته حتى يتلاءم وروح العصر .

وفي ما يأتي أهم هذه العوامل التي عملت على نهضة النثر العربي الحديث :

أولاً : يقظة الأمة العربية

جعل التحدي العربي ممثلا في الاحتلال العسكري على بلادنا العربية لا سيما الغزو الفرنسي على مصر جعل العرب يبحثون عن وسيلة يعتمدون عليها للوقوف أمام هذا التحدي . أما واقعهم فقد التفتوا إليه باحثين فيه عمّا يصدون به هذا التحدي ، ولكنهم لم يعثروا فيه على ضالتهم ، إذ كان هذا الواقع واقعا متخلفا كل ما فيه ينمّ على الضعف والانحطاط . من هنا كان التفاتهم إلى الماضي حتى يدفعهم بما لم يجدوه في حاضرهم ، فكان أن وجدا فيه تراثا حضاريا مشرقا زاخرا بالعطاء والإبداع لهذا راحوا يرجعون إلى التراث العربي القديم ، يبعثونه ويستلهمونه ويستمدون منه قوة لصدّ هذا التحدي الحضاري الذي يهدد كيانهم ووجودهم ومهما يكن من أمر فقد ظهرت ثلاثة

مواقف أثر اللقاء بين الحضارة العربية والأوربية . أما الموقف الأول فقد قام على رفض الحضارة الأوربية كليا وبعث الحضارة العربية القديمة لتكون بديلا عن هذه الحضارة الأجنبية .

وأما الموقف الثاني فقد أعجب بالحضارة الأوربية ودعا إلى اقتباسها والذوبان فيها كليا . وأما الموقف الثالث فقد قام على محاولة التوفيق بين الحضارتين والجمع بين إيجابيات الموقفين .

كان وراء اليقظة العربية الحديثة أعلام ساهموا بفكرهم النير وأعمالهم الجليلة في بعثها ووضع أسسها الفكرية .

يقف في طليعة هؤلاء الشيخ رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ – ١٨٧٣ م) الذي يعد إمام هذه النهضة العلمية في مصر والعالم العربي . كان الطهطاوي شيخا أزهريا اختاره محمد علي إماما لبعثته الأولى إلى فرنسا ، بفضل ذكائه ونفسه الطموح أتقن الفرنسية وأخذ يقرأ بها سائر العلوم والمعارف وألّف في فرنسا كتابا سماه (تخليص الابريز في تلخيص باريز) ضمنه مشاهداته وانطباعاته في فرنسا ، كذلك عربّ فيها عددا من الآثار في علوم ومعارف مختلفة . وبعد عودته إلى مصر عزم على نقل العلم والحضارة الأوربية إلى بلاده ، أسس مدرسة الألسن التي اهتمت بتدريس اللغات الأجنبية وقام بترجمة عدد من الكتب الفكرية والعملية الفرنسية إلى اللغة العربية وفي الوقت ذاته ألّف كتبا في التربية والاجتماع .

ومن أعلام النهضة العربية الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ – ١٨٨١ م) الذي اهتم بإحياء اللغة العربية عن طريق تدريسها ونظم الشعر بها وكتابة المقالات والمقامات ، حتى عدّ أول أستاذ كبير للعربية في لبنان أبان القرن التاسع عشر ومثله ابنه ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ – ١٩٠٦) الذي اشتهر بنزعته القومية التي دفعته إلى نظم قصائد حماسية في القومية العربية ، ومنها بائيته المشهورة :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب	**فقد حمى السيل حتى غاصت الركب**
فيم التعلل بالآمال تخدعكم	**وأنتم بين راحات القنا سلب**

كم تظلمون ولستم تشتكون وكم	**تستغضبون ولا يبدو لكم غضب**

ومثلهما بطرس البستاني (١٨١٩ – ١٨٨٣ م) الذي قام بأعمال جليلة في خدمة اللغة العربية .

ومن هؤلاء عبد الرحمن الكواكبي (١٨٣٩ – ١٩٠٢ م) مؤلف كتابي طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) و (أم القرى) وقد دعا فيهما إلى نقل الخلافة مجددا إلى العرب ، لأنهم وحدهم يستطيعون حفظ الاسلام من الفساد وذلك لمركز الجزيرة العربية في الأمة ولمكانة اللغة العربية في التفكير الاسلامي .

ان هؤلاء الأعلام والمفكرين أسهموا في (خلق نثر عربي حديث صالح للتعبير البسيط والدقيق المباشر عن مفاهيم الفكر الحديث) .

لقد عملت اليقظة السياسية والنهضة الفكرية للعرب وكتابات هؤلاء الأعلام وغيرهم على نهضة النثر العربي الحديث عن طريق تطويعه للتعبير عن مختلف الأفكار والقضايا السياسية والاجتماعية كذلك جعلت النثر يتخلص من الزخارف اللفظية وذلك بالاهتمام بالمعنى بدلا من اللفظ وأعانت في الوقت عينه على إيجاد موضوعات كثيرة ومتنوعة فيه .

ثانياً : البعثات

بدأت البعثات العلمية إلى أوربا في عهد محمد علي وذلك ليتخصص أبناء البلاد في سائر العلوم التطبيقية .

بدأت البعثة الأولى إلى فرنسا في عام ١٨٢٦ م ، وضمّت أربعة وأربعين طالبا ، للتخصص في الهندسة والطب والزراعة والكيمياء والطباعة والميكانيك واختار لها رفاعة الطهطاوي إماما . وتوالت البعثات فيما بعد

كان للبعثات أثر كبير في نهضة مصر وإدخال العلم الحديث إليها . كما كان لها فضل في إحياء اللغة العربية وجعلها مسايرة للعلم الحديث بما ترجم أعضائها من كتب وما أدخلوه من مصطلحات وما ألفوه في شتى نواحي العلم .

ثالثاً : المدارس

عرفت مصر قبل غيرها من الأقطار العربية المدارس الحديثة في عهد محمد علي وكان غرضه في تأسيسها كما ذكرنا تقوية جيشه وتوطيد أركان دولته . ومن أهم المدارس التي أسسها المدرسة الحربية ومدرسة الطب ومدرسة الصيدلة والهندسة ومدرسة الولادة والتمريض ومدرسة الألسن .

ويشهد عام ١٩٠٨ افتتاح الجامعة المصرية بجهود ومساعي مصطفى الغمراوي ومصطفى كامل وسعد زغلول وقاسم أمين ، وتبدأ بإرسال البعثات إلى أوربا لتخريج أساتذة لها . كما تعاقد مع أساتذة أوربيين للتدريس فيها الأمر الذي يجعلها تلعب دورا كبيرا في نهضة مصر ونهضة الفكر العربي الحديث وفي الوقت ذاته يبسط التعليم في الأزهر ويدخله مناهج وعلوم حديثة حتى يصبح جامعة يكون لها أيضا دور مشهود في تاريخ الفكر العربي الحديث .

وعلى العموم ساهمت المدارس مساهمة عظيمة في نشر التعليم والثقافة في الوطن العربي وتخريج الكتّاب والمثقفين الذين تقوم على أيديهم النهضة العربية الحديثة . كما تلعب هذه المدارس دورا عظيما في نشر اللغة العربية والنهوض بها ، وبعث الأسلوب المرسل في النشر بدلا من الأسلوب المزخرف والمسجوع ، لأن هذا الأسلوب المرسل هو الذي يكون قادرا على استيعاب العلوم والمعارف الحديثة وإيصالها إلى الطلاب وسائر الناس.

رابعاً : الترجمة

عرف العالم العربي الترجمة مع اتصاله بالعالم الأوربي في مطلع القرن التاسع عشر وبدأت مع البعثات الأولى إلى أوربا وكان رفاعة الطهطاوي رائد هذا الاتجاه .

فقد عرف بعقله النير أهمية العلوم الأوربية ومدى حاجة مصر إليها . من هنا كان سعيه العظيم إلى ترجمة العلم والفكر الأوربي إلى اللغة العربية وتخريج المترجمين بواسطة مدرسة الألسن .

كان للترجمة فضل عظيم على نهضة النثر وتقدمه . فهي خلصت النثر من القيود البديعية الثقيلة ، بسبب الاهتمام بالمعاني بدلا من الجوانب الشكلية ولو أن المترجمين الأوائل استخدموا أسلوب السجع والبديع في الترجمة أمثال رفاعة الطهطاوي وجماعته . لكن الترجمة فيما بعد اضطرت أصحابها أن يهجروا الأسلوب الذي ترجم به الطهطاوي وتلاميذه ، أعني أسلوب السجع والبديع ، فقد رأوه يفسد المعاني التي يريدون نقلها إفسادا لسبب بسيط هو إنه لا يتسع لها ولا يتيح للمترجم أن يعبر عنها إلا تعبيراً مضطرباً وتعبيراً ممتلئاً بعوائق السجع والبديع .

خامساً : الطباعة

لم تكن مطبعة نابليون أول مطبعة عربية عرفها الشرق العربي فسوريا ومدينة حلب بالذات شهدت أول مطبعة عربية في مطلع القرن الثامن عشر وهذه المطبعة صارت فيما بعد أم المطبعة اللبنانية الأولى التي أنشأها عبد الله ناصر من حوالي ١٧٣٤ م . وجلبت مطبعة ثالثة هي مطبعة القديس جاورجيوس حوالي سنة ١٧٥٠ م لكن هذه المطابع بسبب الظروف السياسية السائدة آنذاك ، لم تستطع أن تؤدي أي خدمة فكرية .

ووصلت المطابع إلى لبنان وسوريا ومصر كذلك العراق بشكل متفاوت .

لعبت هذه المطابع دورا عظيما في نشر المخطوطات العربية وإيصال الكتب إلى مختلف طبقات الشعب . والمطابع هي التي أخرجت إلى النور كنوز الثقافة العربية القديمة وجعلت الكتاب والأدباء يتعرفونها ليجدوا فيها أسلوبا مرسلا لا تكلف فيه ولا قيود ، بل جمال وفصاحة وبساطة . وفي الوقت ذاته عرف هؤلاء بواسطة المطابع والثقافة الغربية التي وجدوا فيها أسلوبا مرسلا وسهلا يعني عناية كبيرة بالمعاني والأفكار ويؤثرها على ما سواها ، فكان كل ذلك عاملا مهما من عوامل نهضة النثر .

سادساً : الصحافة

لم تعرف الصحافة في العالم العربي إلا في القرن التاسع عشر وعرفتها مصر قبل غيرها من الأقطار العربية .

ومع مطلع القرن العشرين ، أخذت تظهر صحف الأحزاب السياسية ومنها (اللواء) لمصطفى كامل ، لسان حال الحزب الوطني ، بعد ذلك صدرت عشرات الصحف والمجلات الأسبوعية والشهرية .

وصدرت بعدها صحف متنوعة في مختلف البلدان العربية ، لقد ساهمت الصحف والمجلات مساهمة عظيمة في نهضة النثر العربي الحديث بجعله ينتشر بين سائر طبقات الشعب وتسهل لغته وتتنوع موضوعاته وفنونه .

إن الصحافة أمدّت الأدب بالحيوية وصقلته وأبعدت عنه الزخارف والجناس والحشو وجعلته سهلا واضحا ، ففي مصر مالت الصحف ، بسبب مخاطبتها كل الطبقات في الأمة وحتى تنتشر في أوسع جمهور ممكن مالت إلى التبسيط في الأسلوب والتفكير ، فالصحفي يحتاج أن يبسط فكرته إلى أقصى حد حتى تكون واضحة أمام القراء وحتى لا يجدوا أدنى مشقة في فهمها وقصورها كما يحتاج أن يصفي لفظها ويختار لها لغة سهلة يسيرة حتى نقترب من الذوق البسيط السهل في الأمة ، وحتى يفهم القارئ ما يقرؤه ويعيه بصورة صحيحة .

وفي سوريا ساعدت الصحافة على تسهيل الكتابة العربية وإيجاد الأسلوب المبسط الذي يتناسب مع الحياة الجديدة النامية حيث مات السجع مع موت التكلف الاجتماعي وتكسرت القوارب اللفظية مع تكسر الجمود والتقليد في الحياة . على ان أسلوب الطهطاوي في كتبه الأخيرة تغير فأصبح أسلوبا سهلا مرسلا حلّ فيه السجع والزخارف اللفظية كما في كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين)المطبوع في عام ١٨٧٣ م والذي يتحدث فيه عن تعليم المرأة . ولا يعني ان العناية بالشكل في الأسلوب ، قد انتهت كليا في النثر العربي الحديث فقد ظل هناك أدباء يعنون في أسلوبهم بالجانب الشكلي لكن دون أن يأتي ذلك على حساب المضمون ، أمثال مصطفى لطفي المنفلوطي ، ومصطفى صادق الرافعي ، وأحمد حسن الزيات وطه حسين وغيرهم .

ان الغالبية من الأدباء مالت إلى البساطة والإيجاز والبعد عن التأنق بكل أنواعه في الجوانب الشكلية حتى يكون ما يكتبونه مفهوما عند الجميع .

مظاهر تطور النثر العربي الحديث

حدث هذا التطور في النثر بصورة تدريجية وبمرور الزمن وبقوة العوامل التي أدت إلى تطور النثر ، وعلى العموم فإن أبرز تلك المظاهر هي :

١- اللغة :

فالعناية غدت تنصب على المضمون بعد أن صار عند الأدباء معين ثَر من الأفكار والمعاني يريدون إيصالها إلى القراء ، وإذ بدأت كفة المضمون ترجع كان ذلك إيذانا بزوال دولة السجع والبديع والزخارف اللفظية . من أجل ذلك صار الأسلوب يميل إلى السهولة والوضوح ويبتعد عن كل ضورب التعقيد ويهجر السجع والبديع وكل ما يمتّ إليها بصلة .

لكن هذا لم يجرِ سهلا دون عوائق ، ولم يأت عند الأدباء جميعا في وقت واحد ، فقد جرت معارك وخصومات عنيفة بين المجددين والمحافظين ، كانت معركة الأسلوب أقوى وأشد هذه المعارك .

ففي بدايات النهضة ظلّ الأسلوب المسجوع والمزخرف سائدا في كتابات الأدباء والمترجمين أمثال رفاعة الطهطاوي وتلاميذه فالطهطاوي وإن كان من أعلام النهضة والتجديد أستخدم الأسلوب المسجوع في كتاباته وترجماته الأولى .

وسنفصل الكلام على طبيعة وخصائص وأعلام هذه الفنون الجديدة في الفصول القادمة .

٢- الموضوعات :

كانت موضوعات النثر العربي خلال ما يسمى بالعصر الوسيط موضوعات محددة ، وساذجة لا أهمية لها وهي موضوعات شخصية لا تكاد تتجاوز موضوعات الشعر من تهنئة بفتح أو ظفر ومن تعزية أو وصف ... الخ

لكن الأدباء والكتّاب منذ منتصف القرن التاسع عشر أخذوا نتيجة لليقظة السياسية وانتشار الصحف يحلّون محل الموضوعات القديمة والمحدودة موضوعات عامة أي أنهم أحلّوا الأمة محل الأفراد ، فلم يعد الكاتب يتوجه بكتابات

إلى شخص معين بل أصبح يتوخى إلى طبقات الأمة على اختلاف درجاتها ، معنى ذلك أن الأديب صار أدبيا ديمقراطيا بعد أن كان أرستقراطيا يوجه حديثه إلى أرستقراطيين من وزراء وأمراء وغيرهم لينال مكافآتهم وجوائزهم . واقتربت لغة الكتابة من لغة الحديث مع تقارب الثقة بين الحاكم والمحكوم .

وفي العراق كان دور الصحف أيضا كبيرا في نهضة الأدب الحديث وتطويره فقد سادت بالأساليب الأدبية النثرية على جادة التطور وفسحت صدرها للفنون الأدبية الجديدة كالمقالة والقصة .

من هنا نجد ان موضوعات النثر أصبحت واسعة ومختلفة ، وتتناول مشكلات الحياة وما يهم الشعوب وما يبعث إلى اليقظة والنهضة ، ولعلّ أهمها :

١- الدفاع عن الأمة والدعوة إلى تحريرها من العبودية والعسف والمطالبة بحقوقها المختلفة ، والتندي بالحكام الظالمين . برز مثل هذا الموضوع عند المصلحين أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبدة وغيرهما .

٢- الدعوة إلى الأخذ بنظام الشورى في الحكم حتى تشعر الأمة ان مقدراتها بيدها . وحتى تأمن جانب حجة يتكئون عليها في إشرافهم على الحكومة وإدارتها . ظهر هذا الاتجاه عند أغلب المفكرين والمصلحين وبعض الأدباء أمثال الأفغاني ومحمد عبدة وعبد الله النديم وأديب إسحاق والبارودي . حتى ان محمد عبدة كتب ثلاث مقالات في الشورى ووجوب الأخذ بالنظام النيابي .

٣- محاربة الاستعمار وإثارة الحمية الوطنية في نفوس الشعوب المستذلة التي غلبت على أمرها وقادها ملوكها وزعمائها إلى الدمار ، بينما العدو يتربص بهم الدوائر .

٤- السعي في إصلاح المفاسد الاجتماعية كالفقر والجهل ومفاسد الحضارة الأوربية التي أخذت تغزو البلاد منذ عهد إسماعيل .

وفي الوقت ذاته ظلت إلى جانب هذه الموضوعات السياسية والاجتماعية موضوعات أدبية وإخوانية من وصف وتعزية وتهنئة ... الخ

٣- الفنون :

أما ما يتعلق بفنون النثر فقد شهد النثر العربي الحديث بتأثير الاطلاع على الآداب الأوربية وشيوع الصحف فنونا وأجناسا نثرية جديدة لم تكن معروفة فيه من قبل وهي المقالة والقصة والمسرحية .

وإلى جانب هذه الفنون القديمة نشطت الخطابة وازدهرت ولا سيما الخطابة السياسية ، وهذا يعود إلى عدة عوامل :

منها التأثر بالفكر السياسي الغربي وما وصل إليه من مبادئ في الحريات والحقوق السياسية والتأثر بالظروف السياسية للبلاد الناجمة عن الحكم السيئ والاحتلال الأجنبي . وتأسيس الأحزاب السياسية التي أخذ كل منها يدعو لنفسه عن طريق الخطباء .

وأشهر الخطباء السياسيين الذين ظهروا في مصر مصطفى كامل وسعد زغلول .

كذلك استحدثت خطابة لم تكن معروفة من قبل ، أعني الخطابة القضائية المتمثلة في الخطب التي يلقيها المحامون والمدّعون العامون في ساحات المحاكم ، وقد جاءنا هذا اللون من الخطابة نتيجة لتأثرنا بنظام القضاء الحديث الذي عرف الغرب في العصر الحديث .

٤- الكتابة والتأليف :

أما ما طرأ على النثر بالمعنى العام الذي يعني الكتابة والتأليف من تطور وتغيير فقد أوضحه جرجي زيدان على الوجه الآتي :

١- سلاسة العبارة وسهولتها .

٢- تجنب الألفاظ المهجورة والعبارات المستجعة .

٣- تقصير العبارة وتجريدها من التنميق والحشو .

٤- ترتيب الموضوع ترتيبا منطقيا في حلقات متناسقة .

٥- تقسيم الموضوع إلى أبواب وفصول وتصدير كل باب او فصل بلفظ أو عبارة تدل على موضوعه .

٦- تذييل الكتب بفهارس أبجدية تسهل البحث عن فروع الموضوع .

٧- تنويع أشكال الحروف على مقتضى أهمية الكلام فيجعلون للمتن حرفا وللشرح حرفا وللرؤوس حرفا .

٨- تسمية الكتب باسم يدل على موضوعها ، كتسمية كتاب تاريخ مصر بتأريخ مصر وكتاب الكيمياء بالكيمياء وأبطلوا التسجيع في أسمائها .

٩- يزينون المؤلفات بالرسوم ويضبطون الألفاظ بالحركات عند الاقتضاء .

١٠- إذا أرادوا إسناد الكلام إلى كتاب أو كاتب أشاروا إلى ذلك في ذيل الصحيفة .

١١- يفصلون الجمل بنقط وعلامات يدلون بها على أغراض الكاتب ، كالوقت والتعجب والاستفهام أو نحو ذلك .